شوقي بزيع

مرثية لنجلاء وطيور النهر

لم تمت
كان ذلك محض ادعاء ،
ان نجلاء (*) لا تحسن الموت
لم تتعلمه في الكتب المدرسية ،
لن تجدوا اثرا للرصاصة بين دفاترها
لقد ذهبت لتعود
ذهبت لترى ذلك الطائر الملهم على طرف الغيم
ها هي تمشي الى جبل الزعفران الصغير
مكللة بثلوج الفراغ ورائحة الشاي
ترى غيمة فتتاخمها
رزقة فتحاذي دوار السماء البعيد
وتهوي على كوكب يتلاشى

* * *

لم تمت
لكنما الشعراء الذين تولوا حراسة أحلامها انطفأوا
والغبار الذي ثار حول ابتسامتها
عاد منذ قليل الى الهدأة الفاجعة
والذي اطلق النار ألقى أصابعه فجأة
والاذاعات كذبت الشائعة
ولم يذكر الستة الاخرون اسمها بينهم
لم تقل أمها أنها ارتطمت بجدار الحقول
وأبوها هوى قبل أن يفتح الباب
لم يقل حزبها أنها تحسن الموت
أو أي شيء له طعمه
فمن أحضر الجثة السابعة
الى ساحة القتل ،
من أمر الناس أن يذرفوا الدمع
أو يرهفوا السمع للنجمة الساطعة
آه نجلاء كم ينبغي أن نكذب أبصارنا
قبل أن يسقط القلب في الحفرة الرائعة

* * *

ان نجلاء لا تحسن الموت
هوذا الانكسار المراهق في صدرها ،
هوذا قمر الكتفين
وقمح اليدين الجنوني
كيف تذبل تلك البراعم في جسمها

(*) احدى ضحايا دير قانون النهر السبع

وتلك الثمار التي انعقدت فوقه
كيف تسقطها طلقة واحدة
وكيف تضيق المسافة بين الزفاف وبين القطاف
الى ذلك الحد ؟
لماذا اتيتم الى موتها
من دعاكم الى الاحتفال ؟
لا تقيموا على قبرها مأتما
أبعدوا النائحات عن الشاهدة
أن نجلاء تأمركم أن تعودوا
كل ليل الى نجمه ،
كل عاشقة نحو عاشقها
من كان منكم بمثل نضارتها فليكف عن الحزن
انها لم تمت
ولكنها تتذرع بالصمت
تتبع نحل الكلام الى عسل الروح
وتتركنا في جحيم الخنادق والغرف الباردة
ان نجلاء لا تحسن الموت
أنظروا كيف تأتي البلاد اليها
كيف نخرج خلف السواد الذي لا تراه
ونلمح أضرحة تتقدم من دمها
يتقدمها صبية يلعبون على شجر الانتصار البعيد
ونسمع قرع طبول على الماء ،
نسمع حول يديها نحاس البحار ،
هتاف الجبال الحماسي
يسألنا أن نتابع أحلامها الهامدة

* * *

نجلاء ماذا فعلت لكي تصلي دون خوف الى الموت ؟
هل سمعت دوي الرصاص ،
هدير التراب الذي ليس يهدأ ،
نبض المياه الخفي
وأغلقت خلفك نافذة الوطن الساخنة ؟
كيف خرجت الى شرفة البيت سهوا
ألم تسمعي جرس الساعة الثامنة
ينادي على الفتيات الصغيرات ؟
ألم تصرخي للحقول الصديقة
أو للطيور الطليقة
أو تسألي في الصباح عن الطرق الآمنة ؟
ونجلاء تجري الى حجر هادىء وتخيم في الصمت ،
تبحث خلف كمين الزهور عن الزهرة الخائنة
ونحن نشاهدها كيف تهوي
نرى جسمها المتدفق ،
طفل يديها الرضيع
ومريولها المدرسي
ونرى خمس عشرة زنبقة تتضرج بالصمت
والفتنة الآسرة
اننا نتسلق متراس أحزانها
لنرى كيف تضرب جثتها عمق هذا الفضاء العدو
وتثقب منتصف الدائرة
لم تمت
ولكنها سبقتنا الى النوم
أو سبقتنا الى الزرقة الساحرة

جنوب لبنان